ولعله يوغل فى التوفيق حين يقول :

إذا فكّرْتُ فى عرضـــ ـــك أشفقتُ على شعرى

وهذا لفظ طاهر لمعنى فاجر ، تسلق به الشاعر سلم العبقرية وهبط بمهجوّه إلى جحيم الخبث والمجون فلم يجد لشعره مجالا فى رسم هذا العرض لأنه يجوز الحدود والسدود ، وهذا منتهى الجودة والابتكار .

وسار ابنُ الرومى فى هذا السبيل نفسه فبلغ من الفنّ مبلغاً عظيما جاوز فيه مراتب زملائه ، فى دقة التصوير ولطف التعبير ، وبراعة التسديد إلى الهدف ، والنيل من خصومه فقد قال فى قوم يهجوهم :

صِلونى بأعْراضٍ لكمْ قدْ تمزّقتْ تمزُّقَ أطْمارٍ على ابن سَبيل

فانظر إلى هذه الصورة البارعة ، وتخيّل هذه الأطمارَ البالية الممزّقة لتجدَ لها شبهاً فى أعراض القوم ، وقد تناثرت على كلّ جانب ، وتمزّقتْ من كلّ طَرَف ، وكان مُقذعاً فى شعره :

كتَمتْهُ أمُّهُ آبـاءَهُ فلهذا أنكر القوْمُ النَّسبْ
ليتهـا أنْبتهُ عَنْ آبائه فلقدْ صُورّ فى خلق عجبْ
لَمْ تزَلْ عرْس «حُرَيْث» مَرْكباً لجميع الناس تحنى للرُّكبْ

فأنت لا تجد لفظاً نابياً ، ولا عبارة جافة ، ولا ذكراً لما تستحى من إيراده ، وإنما تتصور فداحة الهجاء حين تعرف ما وقع لعرس الرجل وكثرة ما ورد على أمه فاختلط النسب وضاع موقع الأب ، لأن المرأة سارت فى كلّ ركب ومشت لكلّ خاطب ، وانحنت لكلّ طالب ، فأين منها الشرف وكيف يكون منها النسل الطيب ؟

وهو حين يهجو خالداً القحطبى فى قصيدة طويلة يقولُ فى أمه ما لم يَقُلْ شاعرٌ ، ويوغل فى الألفاظ البذيئة ، ونقتطف فى حذر شديد بعض أبياتها :

إذا ما وَنى عنها الزُّناةُ دَعَتْهُمُ شقاشقُ من أرحامها الخضْرِ تهْدرُ